

اختلاف الطبيعة البشرية وأثره في الاختلاف الفقهي

بقلم
أ / علي زواري أحمد (*)

ملخص

تسعى هذه الورقة البحثية للكشف عن حقيقة الاستطاعة ومدى مراعاتها في التكليف الشرعي، إذ أنّ الشارع الحكيم راعى في أحكامه الشرعية مدى قدرة المكلفين على الأداء التكليفي وسعتهم وطاقاتهم على القيام بذلك، فكانت الاستطاعة مناط التكليف ومستند الأحكام الشرعية وأساس بناء القواعد الفقهية، وهذا يثبت أنّ الشريعة الإسلامية جاءت باليسر ورفع الحرج عن المكلفين ومراعاة أحوالهم وظروفهم القائمة على الاستطاعة والقدرة والإمكان، فلا تكليف بها لا يطاق.

الكلمات المفتاحية: الطبيعة البشرية؛ الاختلاف الفقهي؛ التركيبة النفسية؛ الحصيلة العلمية؛ الفهم والاستنباط.

مقدمة

الاختلاف الفقهي أمر معلوم ومعروف عند أرباب الصنعة الفقهية، وله أسبابه العديدة والمختلفة، وقد كتب فيها البعض مؤلفات خاصة ومستقلة، وأشار البعض لتلك الأسباب ضمن مصنفاتهم، وأغلبها تركز حول الأسباب المتعلقة بالعلوم الشرعية، والمجالات الاستدلالية والترجيحية، ونحن في مقالنا هذا نتكلم عن شيء آخر له أثره، وهو الاختلاف في الطبيعة البشرية ذاتها، وقد اخترنا في بحثنا هذا أن يكون الحديث عن الآراء الفقهية، وبالتالي جاء بحثنا موسوماً بـ: "اختلاف الطبيعة البشرية وأثره في الاختلاف الفقهي".

(*) باحث في مرحلة الدكتوراه علوم في البلاغة والأسلوبية، وأستاذ متعاقد بمعهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي. soufislam@gmail.com تاريخ الإرسال: 2017/11/17 تاريخ القبول: 2018/06/18

وتكمن أهمية الموضوع في الوقوف عند أحد القضايا المهمة التي بسببها يكون الاختلاف بين الفقهاء؛ بل بسببها قد تتعدد الأقوال للفقهاء الواحد في المسألة الواحدة. ونظرا لما للطبيعة البشرية من قوة وسلطة في حياة الإنسان، تصل به إلى فعل الشيء أو تركه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾¹، فعبر بـ "سكت" تنزيلا للغضب منزلة السلطان الأمر الناهي، الذي يقول لصاحبه: افعل أو لا تفعل، فهو مستجيب لداعي الغضب المسلط عليه²، وهذا فيه من الدلالة على أن الغضب يؤثر في طبيعة الإنسان، وعليه فإن إشكالية البحث تكمن في معرفة ماهية هذه الطبيعة البشرية، والاختلاف الحاصل فيها، ومدى الأثر الذي يحدثه هذا الاختلاف على الرأي الفقهي المختار أو المستنبط.

والهدف من هذا البحث هو معالجة الموضوع من زاوية قد لا يهتم بها الناس، في خضم التركيز على الجوانب الشرعية والعلمية، كما أننا نريد تزويد القارئ والممارس للصناعة الفقهية بالروح العلمية التي تجعله يدرك الأسباب الكامنة وراء الاختلافات الفقهية، والتي منها الاختلاف في الطبيعة البشرية، وهذا يجعل الشخص ملتصقا بالأعداء لغيره ومراعيا أدب الاختلاف.

وحتى نبين جوانب الموضوع سنحاول تجلية ذلك من خلال العناصر الآتية:
أولا - مفهوم الاختلاف في الطبيعة البشرية.

ثانيا - اختلاف التركيبة النفسية وأثره في الاختلاف الفقهي.

ثالثا - اختلاف الحصيلة العلمية وأثره في الاختلاف الفقهي.

رابعا - اختلاف الفهم والاستنباط وأثره في الاختلاف الفقهي.

ونبدأ بالعنصر الأول المتمثل في:

أولا - مفهوم الاختلاف في الطبيعة البشرية

قبل أن نبدأ في تفصيل المادة العلمية المتعلقة بصلب الموضوع وفك إشكاليته، فإنه علينا أن نبين المراد بالاختلاف في الطبيعة البشرية، حتى يتضح العنوان ويمكن

بعدها ففهم تفاصيل الموضوع، وننتقل أولاً من مفهوم الطبيعة البشرية؛ لأنها هي المفتاح لتوضيح المراد بالاختلاف الحاصل فيها.

أ - الطبيعة البشرية كمركب مكون من كلمتين:

- 1 - الطبيعة: وهي مفرد، وجمعها: طبائع، بمعنى طبع، أو فطرة، أو خلق، أو سجية، ولهذا يقال: طبائع النفوس والأشياء: خصائصها وصفاتها³.
- 2 - البَشَرِيَّة⁴: اسم مؤنث منسوب إلى بشر، ويراد به الجنس البشري، وهو مفرد، ويجمع على أبشار، أي إنسان، بمعنى جنس الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾⁵، وقال تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾⁶، وكما يُستخدم للواحد والجمع، وللمذكر والمؤنث، فإنه يُثنى كذلك، كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾⁷.

ب - الطبيعة البشرية كمركب إضافي:

أما الطبيعة البشرية كمركب إضافي فقد جاءت بتعريفات مختلفة، ولكنها متقاربة ويكمل بعضها بعضاً، جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة، بأنها: «ما يُولد مع الإنسان من صفات وعلى ما هو مجبول عليه»⁸. وفيه أيضاً: «خلق وسجية جبل عليها الإنسان»⁹.

وفي المعجم الفلسفي: «ما يتميز به الإنسان من صفات فطرية»¹⁰. وفي جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: «السجية التي جبل وطبع عليها سواء صدرت عنها صفات نفسية أو لا»¹¹. من خلال هذه التعريفات المتقاربة للطبيعة البشرية، والتي تكمل بعضها بعضاً، فإن المراد منها كل سلوك أو سجية في الإنسان؛ سواء كانت مكتسبة أو مورثة، وكل ما تتميز به الإنسان من صفات فطرية جبلية ميزه الله تعالى بها، وكل ما وهبه الله من استعدادات خلقية ونفسية وعقلية وغيرها، فهي بمجموعها تعطي مفهوم الطبيعة البشرية التي نقصدها في هذا البحث.

لقد ذكر المفسرون أن من أسباب حُكْم الملائكة على الإنسان بالإفساد في الأرض، وسفك الدماء فيها ينبع من التركيبة البشرية التي رُكِب بها الإنسان، أو من هذه الطبيعة البشرية التي تميز بها الإنسان، لذا قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾¹².

يقول الطاهر ابن عاشور: «وإنما ظنوا هذا الظن بهذا المخلوق من جهة ما استشعروه من صفات هذا المخلوق المستخلف، بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية والعقلية والنطقية، إما بوصف الله لهم هذا الخليفة، أو برؤيتهم صورة تركيبه قبل نفخ الروح فيه وبعده، والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه، فعلموا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجبلية إلى الاكتساب، وعن الامتثال إلى العصيان... ومجرد مشاهدة الملائكة لهذا المخلوق العجيب المراد جعله خليفة في الأرض كاف في إحاطتهم بما يشتمل عليه من عجائب الصفات»¹³.

ج - ماهية الاختلاف في الطبيعة البشرية:

لقد شاءت حكمة الله تعالى أن يُخلق الناس وهم مختلفون في الصور والألوان والألسن والطباع والعقول والتصورات والتفكير والمدارك، وهذه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهذا الاختلاف لحكمة عظيمة وغاية كبيرة وإلا ما صلحت عملية الابتلاء والاستخلاف التي تقتضي التسخير والتعاون.

ولذا كان هذا الاختلاف آية من آيات الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتَكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾¹⁴. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾¹⁵.

وبما أن الناس مختلفون في الطباع كان تسليط الضوء على هذا الاختلاف، فهو ظاهرة لا يمكن تحاشيها باعتبارها مظهراً من مظاهر الإرادة الإلهية التي ركبها الله في الإنسان، وعليه من العبث محاولة جعل الناس في قالب واحد وتجاوز هذه الفطرة التي

ركبها الله فيهم؛ من تفاوت صفاتهم وأخلاقهم، وأغراضهم وأفهامهم ومداركهم... كل ذلك يؤدي بالضرورة إلى وقوع الاختلاف، وفي مناحي كثيرة ومتعددة، ومنها الاختلاف في الرأي، الذي أردنا تجليته في المجال الفقهي.

وبعد الوقوف عند مفهوم الاختلاف في الطبيعة البشرية يمكن الآن أن نحدد بعض الأمور التي تتعلق بذلك ونبين أثرها في الاختلاف الفقهي.

ثانياً - اختلاف التركيبة النفسية وأثره في الاختلاف الفقهي :

الناس مختلفون في نفسياتهم، ولا يخفى ذلك على أحد منّا أن الناس تختلف فيهم الميول والرغبات والاتجاهات والطباع والغرائز، والغضب والكظم، والخوف وعدمه، وكل هذا أمر مشاهد ولا يستطيع أن ينكره أحد، وهو مرتبط بالتركيبة النفسية للشخص، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾¹⁶، وهذا الضيق الحاصل لرسول الله ﷺ هو على مقتضى الطبيعة البشرية، حين ينوب الإنسان ما يؤلمه ويجزئه، أن يرى في نفسه انقباضاً وضيقاً في الصدر وأسى وحسرة على ما حل به¹⁷.

وكما قال تعالى حاكياً عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾¹⁸، أي فأوجس موسى بشيء من الخوف في نفسه حين فوجئ بذلك على مقتضى الطبيعة البشرية حين ترى الأمر المهول المخيف¹⁹.

يقول سيد قطب: «والمنهج الإسلامي يتعامل مع الطبيعة البشرية بكل مشاعرها ومسايرها واحتمالاتها، والله الذي رضي للمسلمين هذا المنهج هو باري هذه الطبيعة، الخبير بمسالكها ودروبها، العليم بما يصلحها وما يصلح لها... ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟»²⁰.

ومن هنا يرى العلماء في الحكم على أي شخص أن ننظر لبيئته وعصره؛ لأن النفوس تتأثر بالجو الذي هي فيه، وكل ذلك ينعكس على سلوك الشخص، ومن أمثلة هذا الاختلاف في التركيبة النفسية للبشر اختلاف رسول الله عليه الصلاة والسلام مع

خالد بن الوليد في أكل لحم الضب وكلاهما عاش في مكة؛ فنفس خالد بن الوليد لا تعافه؛ ربما لأنه ألف المعارك والأسفار فجعلت منه يأكل الوحوش ما بالك بالضب، ونفس رسول الله ما ألقت أكله وما تربى عليه في قومه فلم يأكله، فعن خالد بن الوليد رضي الله عنه: «أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ مَيْمُونَةَ، فَأُتِيَ بِضَبٍّ مَحْنُوزٍ²¹، فَأَهْوَى إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، فَقَالَ بَعْضُ النِّسْوَةِ: أَخْبِرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ، فَقَالُوا: هُوَ ضَبٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَرَفَعَ يَدَهُ، فَقُلْتُ: أَحَرَامٌ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «لَا، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ» قَالَ خَالِدٌ: فَأَجْتَرَرْتُهُ فَأَكَلْتُهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ»²².

قال ابن حجر: «وفيه أن الطباع تختلف في النفور عن بعض المأكولات»²³. وقد ترجم لهذا الحديث ابن حبان في صحيحه؛ ب: «ذِكْرُ الْإِبَاحَةِ لِلْمَرْءِ أَكْلَ الضَّبَابِ إِذَا لَمْ يَتَقَدَّرْهَا»²⁴، وهذا حمل للحديث على أن فيه قدوة لمن كان في مثل حاله؛ أي لمن يعافه، وهذه ترجمة تعبر عن الجانب النفسي.

فلا يخلو إذا الحكم على الأشياء من الاختلاف بسبب الاختلاف في الصفات والتركيب النفسية في طبيعة البشر؛ يقول الإمام الشاطبي: «لأن بواعث النفوس على الشيء أو صارفها عنه لا تنضبط بقانون معلوم؛ فقد يمتنع الإنسان من الحلال لأمر يجده في استعماله ككثير ممن يمتنع من شرب العسل لوجع يعتريه به حتى يحرمه على نفسه»²⁵. وكما يظهر هذا في العادات وفي مجالات السلوك اليومي للناس؛ يظهر كذلك في مجال الفقه، ومن هذا تجد الاختلاف في طبيعة الصديق التي يغلب عليها اللين وطبيعة الفاروق التي يغلب عليها الشدة، وهذا معروف لمن له أدنى اطلاع بالسيرة، وأدى ذلك الاختلاف في التركيب النفسية لاختلافات كثيرة بينهما، منها أسرى بدر، ومنها قبول الصلح في الحديبية؛ حتى أن شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه السياسة الشرعية قال يطلب الحكم الجمع بين لين أبي بكر وشدة عمر، فيقول رحمه الله تعالى: «وهكذا أبو بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ ما زال يستعمل خالدا في حرب أهل الردة وفي

فتوح العراق والشام وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل، وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى فلم يعزله من أجلها، بل عتبه عليها؛ لرجحان المصلحة على المفسدة في بقاءه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه؛ لأن المتولي الكبير إذا كان خلقه يميل إلى اللين فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة، فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين؛ ليعتدل الأمر ولهذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يؤثر استنابة خالد، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يؤثر عزل خالد واستنابة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه؛ لأن خالدا كان شديدا كعمر بن الخطاب وأبا عبيدة كان لينا كأبي بكر، وكان الأصلح لكل منهما أن يولي من ولاه ليكون أمره معتدلا، ويكون بذلك من خلفاء رسول الله ﷺ الذي هو معتدل حتى قال النبي ﷺ: "أنا نبي الرحمة أنا نبي الملحمة"²⁶، وقال: "أنا الضحوك القتال"²⁷، وأمثه وسط قال الله تعالى فيهم: "أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا"²⁸، وقال تعالى: "أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين"²⁹، ولهذا لما تولى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما صارا كاملين في الولاية، واعتدل منهما ما كان ينسبان فيه إلى أحد الطرفين في حياة النبي ﷺ من لين أحدهما وشدة الآخر، حتى قال فيهما النبي ﷺ: "اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر"³¹.

بل مما عُرِف في الفقه اختلاف نفسية عبد الله بن عمر التي تجنح دوما للتشدد والمبالغة، ونفسية عبد الله بن عباس التي تميل دوما للتيسير والترخص، حتى قال الفقهاء شذائد ابن عمر ورخص ابن عباس³²، وصارت تُضَرَّب بها الأمثال³³. ومن أمثلة ذلك موقفهما من الحجر الأسود والمزاحمة عليه، فقد روى سعيد بن منصور عن القاسم بن محمد قال: «رَأَيْتُ ابْنَ عُمَرَ يُزَاحِمُ عَلَى الرُّكْنِ حَتَّى يُدْمَى». أي يجرح ويسيل منه الدم.

وفي رواية أنه قيل له في ذلك، فقال: «هَوَيْتِ الْأَفْتَدَةَ إِلَيْهِ، فَأَرِيدُ أَنْ يَكُونَ فُؤَادِي مَعَهُمْ»³⁴.

وفي مقابل هذا روى الفاكهي من عدة طرق عن ابن عباس كراهة المزاحمة، وقال :
«لَا تُؤْذِي وَلَا تُؤْذَى»³⁵.

وهذا الاختلاف بسبب التركيبة النفسية ظاهر عند العلماء، فمالك رحمه الله تعالى كان في أحيان كثيرة يبيّن ميله النفسي عندما يكون الأمر فيه سعة وتتجاذبه الأدلة ويصعب فيه الترجيح، ومن أمثلة ذلك ما جاء في المدونة في أبواب متفرقة منها:
وقال مالك في المتيمم يؤم المتوضئين: «يؤمهم المتوضئ أحب إليّ؛ وإن أمهم المتيمم رأيت صلاتهم مجزئة عنهم»³⁶.

وكان مالك يكره أن يصلي أحد على قارعة الطريق لما يمر فيها من الدواب، فيقع في ذلك أبوها وأروائها، قال: «وأحب إلي أن يتنحى عن ذلك»³⁷.
قال سحنون: «قلت لابن القاسم؛ أي ذلك أحب إلى مالك القرآن أم الأفراد بالحج أو العمرة، فقال: قال مالك الأفراد بالحج أحب إليّ»³⁸.

وهذا كثير في المدونة ذكرنا منه القليل؛ بل وكان يردد عبارات شبيهة بهذا، توحى على ميله النفسي لما اختاره في المسألة، مثل قوله: "في خاصة نفسي".
من ذلك قوله في موضع القنوت من صلاة الصبح: «والذي أخذ به في خاصة نفسي قبل الركوع»³⁹.

وعن القراءة في الوتر قال مالك: «والذي أخذ به وأقرأ به فيها في خاصة نفسي قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس في الركعة الواحدة مع أم القرآن»⁴⁰، قال ابن القاسم: «وكان لا يفتي به أحداً؛ ولكنه كان يأخذ به في خاصة نفسه»⁴¹.

ثالثاً - اختلاف الحصيلة العلمية وأثره في الاختلاف الفقهي :

ومما يرجع للطبيعة البشرية هو الاختلاف في الحصيلة العلمية التي تكون لأسباب كثيرة؛ منها قوة الذاكرة، ومتانة الحفظ، وسعة الاستيعاب، ودرجة الذكاء، وصفاء الذهن، ورجاحة العقل، والتفرغ للعلم، وكثرة النظر في كتب العلماء والفقهاء،

ومصاحبة أهل العلم ومخالطتهم، فهذه الأسباب وغيرها تجعل الناس يتفاوتون في تحصيل العلم، وتلك إرادة الله وحكمته سبحانه وتعالى، وقد ضرب لنا المثل في القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾⁴².

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي أخذ كل واد بحسبه؛ فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها؛ فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها»⁴³.

وقد ضرب رسول الله عليه الصلاة والسلام المثل لتفاوت الناس في الحصيلة العلمية، فقال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قِيلَتِ الْمَاءُ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءُ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلِمَ وَعَلَمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَزَفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»⁴⁴.

قال النووي: «أما معاني الحديث ومقصوده؛ فهو تمثيل الهدى الذي جاء به ﷺ بالغيث؛ ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس، فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر، فيحیی بعد أن كان ميتاً، وينبت الكلاً، فتنفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس؛ يبلغه الهدى والعلم فيحفظه، فيحيا قلبه، ويعمل به، ويعلمه غيره فينتفع وينفع، والنوع الثاني من الأرض مالا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة؛ وهي إمساك الماء لغيرها فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثابتة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به؛ فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع فيأخذهم منهم، فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم، والنوع الثالث

من الأرض السباخ التي لا تنبت ونحوها؛ فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه ليتنفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية؛ فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم، والله أعلم⁴⁵. وهذا التفاوت في الحصيلة العلمية أمر حاصل، قد نجده بين الأقران من طلبة العلم في الصف الواحد، ومن أمثلة ذلك:

1 - عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ فقد عرف طريق حياته في أوليات أيامه وازداد بها معرفة عندما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام يدينه منه وهو طفل ويربّت على كتفه، ويدعو له، فيقول: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»⁴⁶. يقول عن نفسه في بيان كيفية تحصيله للعلم الذي فاق به أقرانه: «إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ»⁴⁷. وقيل لابن عباس: كيف أصبت هذا العلم؟ قال: «بلسان سؤال، وقلب عقول»⁴⁸.

ويعطينا صورة لحرصه على إدراكه للحقائق والمعارف والعلوم، فيقول: «لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ أنهم اليوم كثير، فقال: واعجبا لك يا ابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال: فترك الرجل ذاك وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث. فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل. فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح علي من التراب فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟! ألا أرسلت إلي فأتيك. فأقول: لا؛ أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث. فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رأي وقد اجتمع الناس حولي يسألوني. فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني»⁴⁹.

2 - ومثل ما كان من ابن عباس كان من أبي هريرة رضي الله عنه في تحصيله تلكم الحصيلة العلمية الهائلة التي جعلت من البعض يشكك فيها، فقال عن نفسه: «إن

الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً، ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَاهْتَدَىٰ﴾⁵⁰، إلى قوله: ﴿الرَّحِيمِ﴾⁵¹، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون»⁵².

وفي رواية عن الزهري عن الأعرج، قال: سمعت أبا هريرة، يقول: «إنكم تزعمون أن أبا هريرة، يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، والله الموعد، كنت رجلاً مسكيناً، أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَسْطُرْ ثَوْبَهُ فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي»، فبسطت ثوبي حتى قضى حديثه، ثم ضممته إلي، فما نسيت شيئاً سمعته منه»⁵³.

ومع ذلك نجد أبا هريرة مع حرصه وحضوره لم يبلغه حديث أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يصبح جنباً ثم يصوم وهو في رمضان، فكان يفتي ببطلان صوم من أصبح جنباً⁵⁴.

3 - وبمثل هذا علل عمر رضي الله عنه عدم معرفته بسنة الاستئذان؛ فعن عبيد بن عمير: «أن أبا موسى، استأذن على عمر ثلاثاً، فكأنه وجدته مشغولاً، فرجع فقال عمر: "ألم تسمع صوت عبد الله بن قيس، ائذنوا له، فدعي له، فقال: ما حملك على ما صنعت، قال: إنا كنا نؤمر بهذا" قال: لتقيمن على هذا بينة أو لأفعلن، فخرج فانطلق إلى مجلس من الأنصار، فقالوا: لا يشهد لك على هذا إلا أصغرنا، فقام أبو سعيد فقال: «كنا نؤمر بهذا»، فقال عمر: «خفي علي هذا من أمر رسول الله ﷺ، ألهاني عنه الصفق بالأسواق»⁵⁵.

وهكذا لما بلغ عمر الخبر غيّر رأيه، وتراجع عما أراد فعله بأبي موسى، ويبيّن أن إنكاره كان على خفاء في الحديث النبوي الذي لم يبلغه.

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم ورسول الله ﷺ بين أظهرهم يتفاوتون في الحصيلة العلمية للأسباب التي ذكرناها وغيرها، ثم كيف الأمر وقد تفرقوا في الأمصار، وأصبح من العسير الإحاطة بالسنة جميعاً لرجل واحد، بل ولو أحاط بها الإنسان فإنها تدخل عوامل أخرى؛ مثل: دقة الضبط، وسرعة الاستحضار، وعامل النسيان والسهو، مما يجعل التفاوت بين أهل العلم أمراً لازماً تقتضيه الطبيعة البشرية. وفي هذا يقول الشافعي رحمه الله تعالى: «لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء، فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم ما كان ذهب عليه منها موجوداً عند غيره، وهم في العلم طبقات؛ منهم الجامع لأكثره وإن ذهب عليه بعضه، ومنهم الجامع لأقل مما جمع غيره، وليس قليل ما ذهب من السنن على من جمع أكثرها: - دليلاً على أن يطلب علمه عند غير طبقة من أهل العلم، بل يطلب عند نظرائه ما ذهب عليه، حتى يؤتى على جميع سنن رسول الله، بأبي هو وأمي فيتفرد جملة العلماء بجمعها. وهم درجات فيما وَعَوْها منها»⁵⁶.

4 - وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رغم حفظه للسنن والأحاديث، وشدة تأسيه برسول الله ﷺ لم يبلغه المسح على الخفين، وبالتالي أنكر ذلك ولم يجوزه، فلما علم بالحديث تراجع عن إنكاره، وهذا واضح في تأثير الحصيلة العلمية على الرأي الفقهي؛ فقد روى مالك في الموطأ: «أن عبد الله بن عمر قدم الكوفة على سعد بن أبي وقاص، وهو أميرها، فرآه عبد الله بن عمر يمسح على الخفين، فأنكر ذلك عليه، فقال له سعد: سل أباك إذا قدمت عليه، فقدم عبد الله، فنسي أن يسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى قدم سعد، فقال: أسألت أباك؟ فقال: لا، فسأله عبد الله، فقال له عمر: إذا أدخلت رجلك في الخفين وهما طاهرتان، فامسح عليهما، قال عبد الله: وإن جاء أحدنا من الغائط؟ قال عمر: وإن جاء أحدكم من الغائط»⁵⁷.

5 - وعبد الله بن عمرو بن العاص لم يبلغه أن المرأة يجوز لها أن لا تنقض شعر

رأسها عند العسل، وتكتفي بإفراغ ثلاث افراغات من الماء عليه، فكان يفتي بالنقض حتى أخبرته عائشة بذلك⁵⁸.

6 - وهذا أحمد مع جلالة قدره ورسوخ علمه وسعة جمعه لم يبلغه الأثر في قراءة الفاتحة وخواتيم البقرة عند القبر؛ فقد روى أبو بكر بن صدقة قال: سمعت عثمان بن أحمد الموصلي قال: «كان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ومعه محمد بن قدامة الجوهري في جنازة، فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر، فقال له أحمد: يا هذا، إن القراءة عند القبر بدعة، فلما خرجنا من المقابر، قال محمد بن قدامة: يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر الحلبي؟ قال: ثقة. قال: كتبت عنه؟ قال: نعم. قال: فأخبرني مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء عن أبيه أنه وصى إذا دفن بأن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها، وقال: سمعت ابن عمر يوصي بذلك. فقال له أحمد: فارجع فقل للرجل يقرأ»⁵⁹.

7 - وذكر السنن الكبرى، تحت باب كيفية التخليل، وابن أبي حاتم الرازي في الجرح والتعديل في باب ما ذكر من فيه اتباع مالك لأثر رسول الله ﷺ ونزوعه عن فتواه عند ما حدث عن النبي ﷺ خلافه، عن بن وهب قال: «سمعت مالكا يسأل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء؟ فقال: ليس ذلك على الناس. قال: فتركته حتى خف الناس، فقلت له: يا أبا عبد الله، سمعتك تفتي في مسألة تخليل أصابع الرجلين، زعمت أن ليس ذلك على الناس، وعندنا في ذلك سنة، فقال: وما هي؟ فقلت: حدثنا الليث بن سعد، وابن لهيعة، وعمرو بن الحارث، عن يزيد بن عمرو المعافري، عن أبي عبد الرحمن الحلبي، عن المستورد بن شداد القرشي، قال: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُدَلِّلُ بِخِنْصَرِهِ مَا بَيْنَ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ". فقال: إن هذا حديث حسن، وما سمعت به قط إلا الساعة، ثم سمعته يسأل بعد ذلك، فأمر بتخليل الأصابع»⁶⁰.

وأمثلة هذا كثيرة تبين أن من أسباب الاختلاف هو الاختلاف في الحصيلة العلمية، الذي بدوره يؤدي للاختلاف في الأحكام الفقهية.

رابعاً - اختلاف الفهم والاستنباط وأثره في الاختلاف الفقهي :

ومن الاختلاف في الطبيعة البشرية الاختلاف في الفهم؛ بل تجد الشخص الواحد يختلف فهمه من قضية لأخرى؛ فقد يرجع هذا لصفاء الذهن وتكدره، أو لقوة استحضار المدارك أو ضعفها؛ فقد يكون العبد مشغولاً في أمر فيشوش ذلك على فكره، بخلاف من كان فارغ البال من المشاغل، وقد يرجع ذلك أيضاً لقوة التجربة وضعفها، كما يرجع للحصيلة العلمية، وتنوع الثقافة وتعدد المشارب الثقافية والعلمية، ويكون لسبب دقة الملاحظة، وقد يكون بسبب أمر فطري فازداد قوة بالعمل والممارسة وغيرها من الأسباب التي تقوي الفهم أو تضعفه، يقول ﷺ: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبْلَغَهُ غَيْرُهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ لَيْسَ بِفَقِيهِ»⁶¹.

وفي مثل هذا النوع من الاختلاف يضرب الله لنا المثل بسليمان ووالده داود عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾⁶².

جاء في تفسير ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا، فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه، أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها»⁶³.

ولعل من الآيات التي أشكلت على بعض الصحابة رضي الله عنهم ولم تبلغها أفهامهم؛ آية الكلالة، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾⁶⁴؛ ومن هؤلاء الصحابة عمر رضي الله عنه، يقول ابن كثير: «وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه

قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدا تنتهي إليه: الجدة، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا»⁶⁵.

وأيضا من أمثلة الاختلاف في الفهم والاستنباط؛ ما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنه، قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما ربيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾⁶⁶، حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾⁶⁷؛ فتح مكة، فذاك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾⁶⁸، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم»⁶⁹.

ومثال هذا ما كان من عبد الله بن عمر بن الخطاب حين ضرب رسول الله ﷺ المثل للمؤمن بالنخلة فلم يعرفها القوم وعرفها عبد الله، ولكنه استحيا من إبدائها؛ فعن عبد الله بن دينار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي؟ يا رسول الله قال فقال: «هي النخلة» قال: فذكرت ذلك لعمر، قال: لأن تكون قلت: هي النخلة، أحب إلي من كذا وكذا»⁷⁰.

ومن أمثلة الاختلاف الفقهي بين العلماء بسبب اختلاف الفهم والاستنباط؛ اختلافهم في مس القرآن الكريم لغير المتطهر، من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾⁷¹.

فالأكثرية على حرمة ذلك؛ وذهب ابن حزم إلى جوازه، والسبب هو اختلاف الفهم

والاستنباط؛ فقد فهموا أن الآية وردت على طريقة المجاز المرسل في اللفظ المركب⁷²، بمعنى أنها وردت بالأسلوب الخبري؛ الذي يراد منه الأسلوب الإنشائي؛ أي أنه يحمل الأمر بعدم مس القرآن الكريم، وليس مجرد الإخبار على أن القرآن لم يمس إلا المطهرون، جاء في تفسير ابن كثير: «وقال آخرون: "قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب⁷³، قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف"⁷⁴.

لكن ابن حزم الظاهري فهم من الآية أنها مجرد خبر لا يحمل أي أمر على عدم مس القرآن الكريم لغير الطاهر، وبالتالي يميز مسه لغير الطاهر، ويرى أن الآية عارية من الحكم الذي ذهب له الأكثرية، يقول في المحلى: «فهذا لا حجة لهم فيه؛ لأنه ليس أمراً، وإنما هو خبر، والله تعالى لا يقول إلا حقاً، ولا يجوز أن يصرف لفظ الخبر إلى معنى الأمر؛ إلا بنص جلي أو إجماع متيقن، فلما رأينا المصحف يمس الطاهر وغير الطاهر علمنا أنه عز وجل لم يعن المصحف؛ وإنما عنى كتاباً آخر⁷⁵.

فمسألة الاختلاف في الفهم والاستنباط مسألة لها أثرها الواضح في الاختلاف الفقهي، وقد ذكر ابن القيم على هذا أمثلة كثيرة في كتابه القيم إعلام الموقعين، فيقول رحمه الله تعالى: «وهذا يتوقف على بيان مقدمة، وهي أن دلالة النصوص نوعان: حقيقية، وإضافية. فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذا الدلالة لا تختلف، والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكرة وقرينته، وصفاء ذهنه، ومعرفته بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين في ذلك، وقد كان أبو هريرة وعبد الله بن عمر أحفظ الصحابة للحديث وأكثرهم رواية له، وكان الصديق وعمر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت أفقه منها، بل عبد الله بن عباس أيضاً أفقه منها ومن عبد الله بن عمر، وقد أنكر النبي ﷺ على عمر فهمه إتيان البيت الحرام عام الحديبية من إطلاق قوله: «إنك ستأتيه وتطوف به» فإنه لا دلالة في هذا اللفظ على تعيين العام الذي يأتونه فيه⁷⁶.

وبعد ذكره للعديد من النماذج في هذا الصدد؛ يقول: «والمقصود تفاوت الناس في

مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكماً أو حكيمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيماؤه وإشارته وتنبهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به فيفهم من اقترانه به قدراً زائداً على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به»⁷⁷.

الخاتمة

وبعد هذا العرض في بيان اختلاف الطبيعة البشرية وأثر ذلك في الاختلاف الفقهي؛ فإنه يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

- 1- الاختلاف في الطبيعة البشرية أمر فطري في البشر، خلقهم الله تعالى كذلك لحكمة أرادها سبحانه، ولا يمكن أن نحملهم على التساوي والتماثل، أو نتجاهل هذا الاختلاف.
- 2- الاختلاف في الطبيعة البشرية يرجع لعدة أمور؛ منها ما هو من الجبلة والخلقة، ومنها ما هو طارئ ومكتسب.
- 3- الاختلاف الفقهي حقيقة واقعية لها أسبابها الكثيرة والموضوعية، ومن تلك الأسباب الاختلاف في الطبيعة البشرية.
- 4- الاختلاف في الطبيعة البشرية له أثره في الرأي الفقهي، ما يجعل الشخص الواحد قد يغير رأيه في القضية الواحدة.
- 5- الاختلاف حاصل بين الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما هو حاصل بين الصحابة الكرام، ومن بعدهم العلماء الأجلاء، قديماً وحديثاً.
- 6- هذا الاختلاف يجعل الإنسان لا ينكر ما يحصل بين العلماء والفقهاء من اختلافات فقهية، ولا يضيق صدره؛ لأن إنكاره مخالف للطبيعة البشرية التي فُطر الناس عليها.

7- إن هذا الاختلاف يثري الفقه، ويجعله متماشيا مع طبائع الناس وتوجهاتهم، ويرفع الحرج عنهم، ولا ينحصر في بيئة أو زمن بعينه، وهذا ما يطبع الشريعة بخاصية المرونة.

ـ الحواشي والإحالات:

- 1 - الأعراف: 154.
- 2 - ينظر - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ): إغاثة اللفهان في حكم طلاق الغضبان، تح: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة - م ع س، 13 / 1.
- 3 - ينظر - معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ): عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م، (2 / 1385).
- 4 - ينظر - المرجع نفسه (1 / 207 وما بعدها)، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، دار الدعوة، (1 / 58).
- 5 - الأنبياء: 34.
- 6 - المدثر: 25.
- 7 - المؤمنون: 47.
- 8 - معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار: (2 / 1385).
- 9 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 10 - المعجم الفلسفي، جميل صليبا (ت: 1976م): الشركة العالمية للكتاب - بيروت، 1994م، (2 / 13).
- 11 - جامع العلوم في اصطلاحات الفنون = دستور العلماء، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمدي نكري (المتوفى: ق 12هـ):، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000م، (2 / 197).
- 12 - البقرة: 30.
- 13 - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ): الدار التونسية للنشر - تونس، 1984 هـ، (1 / 402).
- 14 - الروم: 22.
- 15 - هود: 118، 119.
- 16 - الحجر: 97.
- 17 - ينظر - تفسير المراغي أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ):، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، 1365 هـ - 1946 م، (14 / 48).
- 18 - الحجر: 67.

اختلاف الطبيعة البشرية وأثره في الاختلاف الفقهي د. علي زواري أحمد

- 19 - تفسير المراغي، المراغي، المرجع سابق، (16 / 128).
- 20 - في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم: دار الشروق. القاهرة، (2 / 880).
- 21 - المحنوذ: المشوي، ومنه قوله تعالى: ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٌ﴾ هود: 69، ينظر - نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: 855هـ)، المحقق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م، 13 / 117.
- 22 - الجامع المسند الصحيح، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، كتاب الذبائح والصيد، باب الضَّبِّ، رقم الحديث: 5537، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422 هـ، (7 / 97).
- 23 - فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، 1379، (9 / 667).
- 24 - صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ): كتاب الأطعمة، باب ما يجوز أكله وما لا يجوز، ترتيب ابن بلبان، المحقق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، 1414 - 1993، (12 / 71).
- 25 - أبو إسحاق الشاطبي: الاعتصام، دار النشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر، (1 / 330).
- 26 - نص الحديث: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفَّى، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ الْمُلْكَةِ»، انظر المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، باب من اسمه إبراهيم، رقم: 2716، (3 / 135).
- 27 - الحديث بحث عنه ولم أجده في كتب الحديث، وقد ذكره بعض المتقدمين غير ابن تيمية؛ منهم ابن كثير في تفسيره من غير إسناد، حيث قال: «وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: "أنا الضحوك القتال"، انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (4 / 238).
- 28 - الفتح: 29.
- 29 - المائدة: 54.
- 30 - سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، حديث حسن، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب (لم يسمه)، رقم: 3662، (5 / 609).
- 31 - السياسة الشرعية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الطبعة: الأولى، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: 1418 هـ، ص: 11.
- 32 - ينظر - الموطأ برواية محمد بن الحسن، مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي: المقدمة، عنصر: موطأ الإمام مالك، بواعث تأليفه، وتاريخ تصنيفه، تحقيق: د. تقي الدين الندوي أستاذ الحديث الشريف بجامعة الإمارات العربية المتحدة، دار القلم - دمشق، الطبعة: الأولى 1413 هـ - 1991 م (1 / 5).
- 33 - فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي

- (المتوفى: 1353هـ)، المحقق: محمد بدر عالم الميرتبي (جمع الأمالي وحررها ووضع حاشية البدر الساري إلى فيض الباري)، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م، (2/ 102).
- 34 - شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهرى: تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م، (2/ 456).
- 35 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 36 - المدونة، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1994 م، (1/ 150).
- 37 - المرجع نفسه (1/ 182).
- 38 - المرجع نفسه (1/ 394).
- 39 - المرجع نفسه (1/ 192).
- 40 - المرجع نفسه (1/ 212).
- 41 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- 42 - الرد: 17.
- 43 - تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر، ط: 2، 1420 هـ - 1999 م، (4/ 447).
- 44 - الجامع المسند الصحيح، البخاري: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، رقم: 79، (1/ 27).
- 45 - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، 1392، (15/ 47).
- 46 - صحيح ابن حبان، ابن حبان، حديث صحيح، كتاب إخباره عليه السلام عن مناقب الصحابة، رجالهم ونسائهم بذكر أسمائهم رضوان الله عليهم أجمعين، باب ذكر وصف الفقه والحكمة للذين دعا المصطفى صلى الله عليه وسلم لابن عباس بهما، رقم: 7055، (15/ 531).
- 47 - تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: 571هـ): المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995 م، (73/ 185).
- 48 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 49 - الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: 230هـ): تحقيق: محمد بن صامل السلمي، مكتبة الصديق - الطائف، ط: 1، 1993 م، (1/ 137).
- 50 - البقرة: 159
- 51 - البقرة: 160
- 52 - الجامع المسند الصحيح، البخاري، كتاب العلم، باب حفظ العلم، رقم: 118، (1/ 35).
- 53 - المسند الصحيح، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ): كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه، رقم: 2492، المحقق:

- محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (4/ 1939).
- 54 - ينظر - الموطأ برواية أبي مصعب الزهري، مالك بن أنس، كتاب الصيام، باب ما جاء في الذي يصبح جنباً، رقم: 777، المحقق: بشار عواد معروف - محمود خليل، مؤسسة الرسالة، 1412 هـ، (1/ 303).
- 55 - المسند الصحيح، مسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان، رقم: 2153، (3/ 1695).
- 56 - الرسالة، الشافعي: دراسة وتحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، 1، 1358 هـ/ 1940 م، ص: 42.
- 57 - الموطأ، مالك بن أنس، وقوت الصلاة، باب ما جاء في المسح على الخفين، رقم: 87، (1/ 39).
- 58 - ينظر - المسند الصحيح، مسلم، كتاب الحيض، باب حكم صفائر المغتسلة، رقم: 330، (1/ 260).
- 59 - المسائل الفقهية من كتاب الروايتين والوجهين، القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف المعروف بابن الفراء (المتوفى: 458 هـ)، المحقق: د. عبد الكريم بن محمد اللاحم، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى (1405 هـ - 1985 م)، (1/ 214).
- 60 - السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُو جُردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458 هـ)، حديث حسن، جامع أبواب سنة الوضوء وفرضه، باب كيفية التخليل، رقم: 360، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م (1/ 124).
- والجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: 327 هـ)، 31 / 1.
- 61 - سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279 هـ)، حديث حسن، أبواب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم: 2656، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط: 2، 1975 م، (5/ 33).
- 62 - الأنبياء: 78، 79.
- 63 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: (5/ 312).
- 64 - النساء: 176.
- 65 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، المرجع السابق، (2/ 482).
- 66 - النصر: 1، 2.
- 67 - النصر: 1.
- 68 - النصر: 3.
- 69 - الجامع المسند الصحيح، البخاري، كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح، رقم: 4294، (5/ 149).
- 70 - المسند الصحيح، مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة، رقم: 2811، (4/ 2164).
- 71 - الواقعة: 77 - 79.

- 72 - المجاز المرسل في اللفظ المركب، هو: «المركبات التي تستعمل في غير معانيها الأصلية بهيئتها التركيبية لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. كاستعمال المركبات الخبرية في الإنشاء، واستعمال المركبات الإنشائية في الخبر». البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: 1425هـ)، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط: 1، 1416هـ - 1996م، (2/ 272).
- 73 - المراد بالطلب؛ هو طلب الفعل أو الكف عنه في المستقبل؛ وذلك أن الأسلوب الإنشائي الطلبي يتكون من: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتعجب، والتمني، وفي الآية على فهم الأكثرية أنها على صيغة الأمر، والأمر: «هو طلب حصول الفعل من المخاطب: على وجه الاستعلاء». جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، (ص: 71).
- 74 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (7/ 545).
- 75 - المحلى بالآثار، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ)، دار الفكر - بيروت، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، (1/ 98).
- 76 - إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ): قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1423هـ، (3/ 116).
- 77 - المرجع نفسه، (3/ 126).

The difference of human nature and its impact on the difference fiqhi

Ali Zouari Ahmed

soufislam@gmail.com

EL oued University



Abstract:

This article seeks to reveal the reality of the ability and the extent to which it is observed in the application of the Judgments Shariah. In its Sharia Judgments, Allah has taken care of the ability of people to perform and their energy to do so, This indicates that the Islamic law came easily and lift the embarrassment of people and take into account their conditions that are subject to capacity.

Keywords:

Human nature; fiqhi difference; Psychological structure; Scientific outcome; Understanding .

اختلاف الطبيعة البشرية وأثره في الاختلاف الفقهي د. علي زواري أحمد